قناة لوغوس بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة
حلقات على الهواء (٣، ٤)
أكتوبر – نوفمبر ٢٠١٦م

الكنيسة هي جسد المسيح

كيف استطاعت الكنيسة أن تجعلنا جميعاً جسداً واحداً في المسيح؟

يقول السيِّد المسيح في صلاته الشَّفاعيَّة: «ليكون الجميع واحداً، كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني» (يوحنَّا ١٧: ٢١).

يقول البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م):

[نحن لن نصير واحداً مثلما أنَّ الآب هو في الابن بالطَّبيعة وكذلك الابن في الآب، بل بحسب ما يتَّفق مع طبيعتنا الخاصة ... الرَّب هنا يطلب لأجلنا شيئاً أعظم وأكمل، لأنه واضحٌ أنَّ الكلمة قد جاء لكي يكون فينا لأنه قد لبس جسدنا ... **لأننا جميعاً، باشتراكنا فيه، نصير جسداً واحداً، لأننا نحصل على الرَّب الواحد في أنفسنا ... فنحن، فبدون الرُّوح القُدُس، نكون غرباء وبعيدين عن الله، ولكنَّنا بشركة الرُّوح القُدُس، نصير أقرباء لله،** حتى أنَّ وجودَنا في الآب هو ليس منَّا، بل هو خاصٌ بالرُّوح الموجود فينا، والذى يسكن فينا ...][1].

واضحٌ من الآية السَّابق ذكرها، أمران أساسيَّان:

والأمر الأوَّل، هو أنَّ وحدتنا بعضنا مع بعض، هي الضَّمان الوحيد، لكي يؤمن العالم بالمسيح. انظروا خطورة عدم الوحدة بين الذين تسمّوا باسم المسيح، أنهم يعوِّقون إيمان العالم بالمسيح. وهكذا تصبح الوحدة بين المسيحيِّين، هي أعظم عمل كرازي ممكن أن تقوم به الكنيسة.

الأمر الثَّاني، هو في كلمة "فينا" أي أنَّ وحدتنا مع بعضنا البعض، لا يمكن أن تكون إلاَّ بوجودنا في الآب، وذلك يتحقَّق بسُكنى الرُّوح القُدُس فينا أولاً، ثمَّ أيضاً بسُكنى المسيح فينا.

وعن هذا الأمر الثَّاني، والمهم جدًّا، يدور حديثنا. وهو يتركز في فعلين إلهيين كما سبق أن ذكرتُ، الأوَّل هو سكنى الرُّوح القُدُس فينا، والثَّاني هو سكنى المسيح فينا.

فلنتكلم أوَّلاً عن سكنى الرُّوح القُدُس فينا

شركتُنا في الرُّوح، هي التي تجعل الكنيسة كنيسة واحدة. فيقول القدِّيس بولس الرَّسول: «لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد، يهوداً كنا أم يونانيين، عبيداً أم أحراراً، وجميعنا سُقينا روحاً واحداً» (١كورنثوس ١٢: ١٣).

أي أننا بالرُّوح القُدُس الذي نلناه في سرّ الميرون المقدَّس، قد صرنا جميعاً جسداً واحداً، لأننا شربنا روحاً واحداً. هذا الرُّوح الواحد الذي شربناه، هو الرُّوح القُدُس.

١- ضد الأريوسيِّين ٣: ٢٠-٢٢، ٢٤

معنى أننا شربنا الرُّوح القُدُس

أمَّا عن أننا نشرب الرُّوح القُدُس، فيقول القدِّيس يوحنَّا البشير «وفي اليَوم الأخير العظيم من العيد[٢]، وقف يسوع ونادى قائلاً: إن عطش أحد فليقبل إليَّ ويشرب. من آمن بي كما قال الكتاب، تجري من بطنه أنهار ماء حي» (يوحنَّا ٧:٣٧-٣٩).

وحين قال الرَّب إنَّ الإيمان به، لا يروى القلب العطشان فحسب، بل ويتحوَّل هذا الإيمان إلى ينبوع يروي الآخرين أيضاً، حين قال هذا، كان الكلام محيراً وغير مفهوم، إذ كيف تخرج من بطن الإنسان إذا آمن بالمسيح، أنهار ماء حي، والكتاب لم يذكر شيئاً مثل هذا بالنِّسبة للماء؟ فلقد ظلَّ هذا الأمر لغزاً محيراً للسَّامعين، وبسببه حدث انشقاق بين الجميع. وهو نفس الانشقاق الذي حدث حين تكلَّم الرَّب عن أكل جسده المقدَّس وشرب دمه الكريم. ولم يهم الرَّب شيئاً من ذلك. لأنَّ ما كان الرَّب مزمعاً أن يفعله هو شيء لا يمكن للعقل أن يستوعبه، لأنه كيف يمكن أن تصل علاقتنا بإلهنا إلى مستوى الأكل والشُّرب؟ ولكن الرَّب قال، وينبغي أن نؤمن.

يقول إشعياء النَّبي: «لأني أسكب ماءً على العطشان، وسيولاً على اليابسة، أسكب روحي على نسلك، وبركتي على ذريتك» (إشعياء ٤٤:٣). ونبوءة يوئيل النَّبي: «ويكون بعد ذلك أني أسكب روحي على كل بشر، ... وعلى العبيد والإماء أسكب روحي في تلك الأيام» (يوئيل ٢:٢٨، ٢٩).

والسَّكب هو صفة تختص بالماء، وهو هنا يصف عطيَّة الرُّوح القُدُس. وإذا قارنا ذلك بقول الرَّسول بولس: «لأنَّ محبَّة الله قد انسكبت في قلوبنا بالرُّوح القُدُس المعطى لنا» (رومية ٥:٥)، نعرف كيف يوحِّدنا الرُّوح القُدُس لنصير واحداً بالمحبة، بعضنا لبعض.

وهذا هو نفس ما يقوله القدِّيس إيريناؤس (١٣٠-٢٠٠م):

> [الرُّوح (القُدُس) يجمع في الوحدة القبائل المتخالفة، ويقدِّم للآب باكورةً من جميع الأُمم. وهذا هو ما وعد به الرَّب، أن يُرسل الباراقليط الذي يؤلِّفنا مع الله. فكما أنه يستحيل أن يصير الدَّقيق الجاف عجيناً واحداً ولا خبزاً واحداً بدون ماء، هكذا نحن الكثيرين، لا يمكن أن نصير واحداً في المسيح يسوع بدون ذلك الماء (الرُّوح السَّمائي!)] (ضدَّ الهرطقات ٣:١٧:٢).

كيف أمكن للكنيسة أن تسكب فينا الرُّوح القُدُس؟

القدِّيس يوحنَّا البشير، يشرح لنا بخبرته الخاصة، كيف حل الرُّوح القُدُس على التَّلاميذ في مساء يوم القيامة، وانسكب عليهم، فشعروا كيف ينسكب الرُّوح عليهم كالماء، ويفيض من قلوبهم وأفواههم كأنهار. فيقول: «... قال هذا عن الرُّوح الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه، لأنَّ الرُّوح القُدُس لم يكن قد أعطي بعد، لأنَّ يسوع لم يكن قد مُجد بعد» (يوحنَّا ٧:٣٧-٣٩).

لم يكن ممكناً أن يُعطى الرُّوح القُدُس للمؤمنين، قبل أن يتمجَّد المسيح ويدخل إلى مجده. ودخول المسيح إلى مجده كان بالقيامة من بين الأموات، وصعوده أي عودته إلى الآب.

فلم تكن البشريَّة مهيأة أن تتقبَّل الرُّوح القُدُس وعطاياه إلاَّ بعد أن دخل المسيح إلى الأقداس العُليا مرَّة واحدة، فوجد لنا

٢- هو عيد المظال، والذي فيه كانت قراءات الهيكل هي:
«ها أنا أقف أمامك هناك على الصَّخرة في حوريب، فتضرب الصَّخرة، فيخرج منها ماء ليشرب الشَّعب» (خروج ١٧:٦).
«رفع موسى يده وضرب الصَّخرة بعصاه مرَّتين، فخرج ماء غزير، فشربت الجماعة ومواشيها» (عدد ٢٠:١١).
«الذي أخرج لك الماء من الصَّخرة الصوان» (تثنية ٨:١٥).
«المحول الصَّخرة إلى جداول مياه، الصوان إلى ينابيع مياه» (مزمور ١١٤:٨).

فداءً أبديًّا، أي بعد أن تراءى المسيح أمام الآب وهو حامل بشريَّتنا، فكمُلَ بذلك فداءُ الإنسان وتصالحه مع الآب.

فالكنيسة قد قبلت الرُّوح القُدُس بعد أن اكتمل فداؤها، وذلك حين تراءى الابن أمام الآب من بعد قيامته المقدَّسة، والتي بها دخل الابن إلى مجده، حاملاً في جسده طبيعتنا الجديدة. فاكتمل فداؤنا.

لأنه كما كانت بداية مراحل خلاصنا هي نزول الابن من عند الآب إلينا على الأرض لابساً طبيعتنا التي سقطت، هكذا كانت نهاية مراحل خلاصنا، حين عاد الابن إلى أبيه حاملاً فيه طبيعتنا التي افتداها بالموت والقيامة.

يوضِّح القدِّيس كيرلُّس الكبير (٤١٢-٤٤٤م) ذلك الأمر في شرحه لهذه الآية (يوحنَّا ٣٩:٧)، فيقول:
[الآن إذ ظهر أنَّ وقت حلول الرُّوح علينا كان قد جاء بعد القيامة من الموت، فنراه وقد نفخ في تلاميذه قائلاً: اقبلوا الرُّوح القُدُس (يوحنَّا ٢٢:٢٠)، إذ كان زمن التَّجديد حقًّا على الأبواب ... بل كان بالحري في داخل الأبواب].

القدِّيس كيرلُّس الكبير، يتكلَّم هنا - بحسب الأناجيل وسفر الأعمال - أنَّ الرُّوح القُدُس قد أُعطي أوَّلاً للتَّلاميذ، في مساء يوم القيامة، بنفخة الرُّوح القُدُس من فم المسيح، وهذه هي المرة الأولى والوحيدة التي ترد فيها هذه الكلمة «نَفَخَ» وهي خاصة بالله وحده. وهكذا خلق المسيح من الرُّسُل، بنفخة فمه، باكورة خلائقه بالرُّوح القُدُس، لميراث جديد في السَّماء، لحياة أبديَّة. تماماً كما نفخ الله الخالق في جُبلة الإنسان لَّما خلقه فصار آدم نفساً حيَّة. ففي نفخة القيامة هذه، صار الإنسان خليقة جديدة حيَّة، تتنفس بالرُّوح القُدُس لحياة أبديَّة.

فيقول القدِّيس كيرلُّس الكبير في ذلك:
[إنَّ مُخلِّصنا أَعطى الرُّوح بواسطة العلامة الظَّاهرة وهي ''نفخته'' للتَّلاميذ القدِّيسين، باعتبارهم باكورة الطبيعة البشريَّة المجدَّدة. وكما كَتَبَ موسى عن الخلق الأوَّل أنَّ الله نفخ في أنف الإنسان نسمة الحياة، يحدُث نفس الشَّيء الذي حدث في البدء، عندما يجدِّد الله الإنسان، وهو ما يسجِّله يوحنَّا هنا. وكما خُلق الإنسان في البدء على صورة خالقه، كذلك الآن بالاشتراك في الرُّوح القُدُس، يتغيَّر إلى صورة خالقه ويُصبح على مثاله ...].

هذه النَّفخة التي نفخها المسيح في التَّلاميذ، كباكورة الطَّبيعة البشريَّة المجددة، هي نفسها النَّفخة التي انتقلت من التَّلاميذ إلى الأساقفة الذين أقيموا من أجل تكميل الخدمة. وهي نفس النَّفخة التي انتقلت من الأساقفة إلى الكهنة، في سرّ الكهنوت. وهي نفس النَّفخة التي انتقلت من الكاهن إلى كل معمَّد جديد في معموديَّة الماء والرُّوح، حين ينفُخ الكاهن في وجه المعمَّد ويقول له: ''اقبل الرُّوح القُدُس وكن إناء طاهراً في الكنيسة المقدَّسة''.

ولكن ماذا عن حلول الرُّوح القُدُس في يوم الخمسين؟

يشرح القدِّيس كيرلُّس الكبير أنَّ حلول الرُّوح القُدُس على المجتمعين في العِلِّيَّة، كان حلولاً لبدء انطلاق الخدمة والكرازة بقوَّة الرُّوح القُدُس. وهكذا يفرِّق القدِّيس كيرلُّس بين عطيَّة الرُّوح القُدُس للتَّلاميذ بالنَّفخ من فم المسيح، وبين حلول الرُّوح القُدُس يوم الخمسين فيقول:
[إنَّ مُخلِّصنا أَعطى الرُّوح بواسطة العلامة الظَّاهرة وهي ''نفخته'' للتَّلاميذ القدِّيسين، باعتبارهم باكورة الطبيعة البشريَّة المجدَّدة ... ولكن في أيام عيد الخمسين المقدَّس، فقد أعلن الله علانية، نعمته وأظهر مجيء الرُّوح القُدُس للكُل وليس للتَّلاميذ فقط ... ولم يكن هذا بالنِّسبة للتَّلاميذ بداية نعمة الرُّوح القُدُس الذي سكن في قلوبهم، ولكن بداية نعمة التَّكلُّم بالألسنة ... **وهذا يعني بداية التَّكلُّم بالألسنة، وليس بداية التَّقديس** ... أي بداية عمل الرُّوح القُدُس الذي فيهم] (تفسير إنجيل يوحنَّا ٢٢:٢٠-٢٣).

يقول القدِّيس إيريناؤس (١٣٠-٢٠٠م):

[كما أنَّ نفخة الله قد حلَّت في الجُبلة الأولى، هكذا استؤمنت الكنيسة على عطيَّة الله (أي الرُّوح القُدُس)، حتى باشتراك جميع الأعضاء فيه، ينالون منه الحياة. وفي الكنيسة أُدُّخرت الشَّركة مع المسيح، التي هي الرُّوح القُدُس عينه، عربون عدم الفساد وثبات إيماننا، والسُّلَّم الصَّاعد إلى الله ... لأنه **حيث تكون الكنيسة، يكون روحُ الله؛ وحيث يكون روحُ الله، تكون الكنيسة وكلُّ موهبة**. والرُّوح هو حق، ولذلك فالذين لا يشتركون فيه، لا يرضعون ثدي أمهم (الكنيسة) لينالوا الحياة، ولا يرتشفون من الينبوع الصَّافي الذي ينبع من جسد المسيح] (ضدَّ الهرطقات ٣:٢٤:١).

نعم. ينادي القدِّيس غريغوريوس النَّزينزي (٣٢٩-٣٨٩م) بحفظ وحدانيَّة الرُّوح، فهذا هو الأمر الأهم، فيقول:
[كيف ونحن تلاميذ المسيح الذي أخلى نفسه من أجلنا آخذاً صورة عبد، وجمعنا إليه نحن الغُرباء عن الخيرات السَّماويَّة، كيف لا نسعى لأنْ نتآلف بعضُنا مع بعض، بل ونُعانق بعضُنا بعضاً، لنحفظ وحدانيَّة الرُّوح برباط السَّلام (أفسس ٤: ٣)؟ أليس هذا هو السِّر المُخْفَى في النَّاموس والأنبياء (متى ٧: ١٢، رو١٣: ٨-١٠)، بل وأهم شيء فيهما؟!] (عظة ٢٤:٢).

وكما أنَّ الرُّوح القُدُس المنسكب فينا، يسكب في قلوبنا المحبَّة، التي توحِّدنا برباط السَّلام، هكذا القداسة أيضاً توصِّلنا إلى الوحدة، لأنَّ الخطيئة هي التي تسبَّبت في انقسام البشريَّة.

ويقول البابا ألكسندروس (بداية القرن الرَّابع)، بأنَّ المسيح جاء،
[ليُخلِّص الإنسان الذي هلك ويجمع كلَّ أعضائه التي تشتَّتت][٣].

أي أنَّ الرُّوح القُدُس نفسه، وهو روح المحبَّة، وروح القداسة، هو الذي يجعل الكنيسة كنيسة واحدة. ويقول البابا أثناسيوس الرَّسولي:
[عندما يكون الرُّوح القُدُس مع الشَّعب، يكون الله (الآب) معهم بالابن في الرُّوح][٤].

الآن نعرف يقيناً ماذا تعني طلبة الكنيسة في كل قُدَّاس: "صلُّوا من أجل المحبَّة".

يقول الكاهن في القُدَّاس الإلهي:
"أيها الرَّب الذي قدَّس هذه القرابين الموضوعة، بحلول روحك القدُّوس عليها، وطهَّرها. طهِّرنا نحن أيضاً يا سيِّدنا من خطايانا الخفية والظَّاهرة، وكلُ فكر لا يُرضي صلاحك يا الله محب البشر، فليُبعد عنَّا".

ويقول أيضاً:
"كما أنَّ هذه القرابين طاهرة في كلِّ شيء، إذ قد تفضَّلتَ وأفعمتها من كلِّ شيء طاهر بحلول روحك القدُّوس عليها، هكذا نحن أيضاً الخطأة تفضَّل قدِّس نفوسنا وأجسادنا وأرواحنا وسرائرنا".

ويقول أيضاً:
"ليحل روحك القدُّوس علينا وعلى هذه القرابين الموضوعة ...".

"أنعم لنا يا سيِّدنا بعقل وقوَّة وفهم، لنهرب إلى التَّمام من كلِّ أمر رديء للمضاد، وامنحنا أن نصنع مرضاتك كلَّ حين. اكتب أسماءنا مع كلِّ صفوف قدِّيسيك في ملكوت السَّموات، بالمسيح يسوع ربِّنا".

وهكذا نختم كلامنا عن سكنى الرُّوح القُدُس فينا. ويبقى أن نتكلم عن سكنى المسيح فينا، وكيف تجعل الإفخارستيَّا من المشتركين فيها جسداً واحداً.

٣- عظة عن النَّفس والجسد وآلام الرَّب: *ANF* VI, 302
٤- رسائل القدِّيس أثناسيوس عن الرُّوح القُدُس، ١:١١، ١٢

كيف تجعل الإفخارستيَّا من المشتركين فيها جسداً واحداً؟

يقول القدِّيس إغناطيوس الأنطاكي (٣٥- ١٠٧م) الشَّهيد:
[...احرصوا ألاَّ يكون لكم سوى إفخارستيَّا واحدة، **لأنه يوجد جسدٌ واحدٌ لربِّنا يسوع المسيح، وكأسٌ واحدة للاتحاد به، ومذبحٌ واحد**][٥].

فصار الشَّهيد إغناطيوس الأنطاكي، هو أوَّل من أكَّد على أنَّ جسد المسيح هو جسد واحد، ومن ثمَّ على حتميَّة "الإفخارستيَّا الواحدة"، أي وحدة الجسد المقدَّس، أي الخبزة الواحدة والكأس الواحدة، والمسيح الواحد، والمذبح الواحد.

فهذه الإفخارستيَّا الواحدة، هي التي تقدر أن تجمع المؤمنين كلَّهم في وحدة معاً. فهي في غايتها إفخارستيَّا واحدة، من أجل كنيسة واحدة. وهذا المفهوم يرد في أقدم نصٍّ ليتورجي معروف، كما ورد في كتاب "الدِّيداخي" أي تعليم الرُّسُل، وهو من مدوَّنات أواخر القرن الأوَّل الميلادي. فيقول: "كما كان هذا الخُبز المكسور، منثوراً فوق الجبال، ثمَّ جُمع فصار واحداً، هكذا اجمع كنيستك من أقصاء الأرض إلى ملكوتك، لأنَّ لك المجد والقدرة بيسوع المسيح إلى الآباد" (ديداخي ٩:٤).

وهو نفس ما يشرحه كتاب "الدِّسقوليَّة" أي تعاليم الرُّسُل، وهو من مدوَّنات القرن الرَّابع الميلادي: فيقول: "بما أنكم أعضاءُ المسيح، لا تفتحوا باباً للانشقاق عن الكنيسة بعدم اجتماعكم معاً، فيما أنَّ لكم المسيح رأساً، وهو بحسب وعده حاضرٌ بينكم، ومشاركٌ لكم. لا تهملوا أنتم المخلَّص، ولا تحرموه أعضاءه، ولا تمزِّقوا أو تبعثروا جسده، ولا تفضِّلوا اهتمامات حياتكم الزَّمنيَّة على كلمة الله. ولكن في يوم الرَّب اتركوا كلَّ شيء واهرعوا معاً إلى الكنيسة" (٢:٥٩:٢-٣).

المسيح بدوننا محروم من أعضائه، وامتناعنا عن حضور الكنيسة يمزِّق جسد المسيح. فهو ينتظرنا في بيته، ليكمِّل سرَّ حضوره فينا، أي في بيته، وبيته نحن. فسر حضور الرَّب الدَّائم في سرِّ الإفخارستيَّا، هو الذي حفظ الكنيسة وأبقى عليها حتى اليَوم.

ويقول إغناطيوس الأنطاكي (٣٥-١٠٧م) الشَّهيد:
[حيث يكون المسيح، هناك تكون الكنيسة الجامعة] (أزمير ٨).

حول نصوص الصَّلوات اللِّيتورجيَّة

يُصلِّي الأب الكاهن في القُدَّاس الإلهي، ويقول: "اجعلنا مستحقين كلَّنا يا سيِّدنا، أن نتناول من قُدساتك طهارة لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا، لكي نكون جسداً واحداً وروحاً واحداً، ونجد نصيباً وميراثاً مع كافة قدِّيسيك الذين أرضوك منذ البدء".

فأن نصير روحاً واحداً، هذا يمكننا فهمه، ولكن كيف يمكن أن نصير جسداً واحداً؟ أو كيف تستطيع الإفخارستيَّا، بتناولنا من جسد الرَّب ودمه الكريمين، أن تحقق هذه الوحدة على مستوى الرُّوح والجسد أيضاً؟

يقول القدِّيس كيرلُّس الكبير (٤١٢-٤٤٤م):
[صحيح حقاً أننا متَّحدون بالمسيح روحياً، بالمحبَّة الكاملة والإيمان البسيط المستقيم والنيَّة الصَّالحة النقيَّة. هذا هو اعتقادنا، ونحن لا ننكره ... **ولكن إنْ تجاسر أحدٌ وقال إنَّ ليس لنا معه أية علاقة بحسب الجسد، فهو يقع في مخالفة صريحة لأقوال الكُتُب الإلهيَّة**. فمن الواضح بدون أدنى شك، أنه بسبب هذا الاتحاد بحسب الجسد، قيل إنَّ المسيح هو الكرمة ونحن الأغصان، وأننا منه وبه نستمد الحياة داخلنا ... **فلماذا إذاً تدخل الأولوجيَّة السِّرِّيَّة**

5- *philad.* 4

(الإفخارستيًّا) داخلنا؟ أليس لكي تجعل المسيح يسكن فينا جسدياً بالتَّناول وبشركة جسده المقدَّس؟][٦].

إننا نحن الكثيرين خُبزة واحدة، جسدٌ واحد، لأننا جميعاً نشترك في الخُبزة الواحدة. وهذا ما يوضِّحه البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨- ٣٧٣م) بقوله:

[إننا نحن جميعاً إذ نتناول μεταλαμβάνοντες من الرَّب الواحد بعينه، نصير جسداً واحداً، إذ يكون لنا في أنفسنا الرَّبُّ الواحد][٧].

وفي خطاب أرسله البابا أثناسيوس الرَّسولي إلى مكسيموس سنة ٣٧١م، يوضِّح له فيه أننا نتناول ليس جسد إنسان، بل جسد الكلمة نفسه[٨]. وهنا يتعامل القدِّيس أثناسيوس مع خُبز الإفخارستيًّا المتحوِّل، كتعامله مع جسد المسيح الحي تماماً. وهو نفس ما يقوله الكاهن في الاعتراف الأخير في القُدَّاس الإلهي، حين يقول: ''أؤمن أن هذا هو الجسد المحيي الذي أخذه ابنك الوحيد ... يسوع المسيح من سيِّدتنا ... العذراء مريم، وجعله واحداً مع لاهوته ... الخ''.

في ليلة العشاء الأخير، حينما أخذ الرَّب خبزاً على يديه، وبارك، قدمه للتلاميذ قائلاً لهم وهو يشير إلى نفسه: ''هذا الخُبز هو جسدي''. وإن ربطنا بين قوله هذا، وقوله أيضاً: «جسدي مأكل حق، ودمي مشرب حق»، وأيضاً قوله: «**من يأكلني يحيا بي**»، لتأكدنا تماماً أنَّ خُبز الإفخارستيًّا على المذبح، هو نفسه جسد المسيح المحيي.

ويشرح القدِّيس كيرلُّس الكبير كيف أنَّ هذا الجسد المحيي هو الذي يجعل الكنيسة كلَّها جسداً واحداً معه، فيقول:

[لكي يوحِّدنا ابن الله بنوع ما مع الله، ومع بعضنا البعض، بل ويمزجنا بعضُنا ببعض، على الرَّغم من كوننا مفترقين في نفوسنا وأجسادنا بسبب الكيان الذَّاتي لكلٍّ واحد، ابتكر وسيلةً، بحكمته الخاصة وبمشورة الآب؛ إذ بارك المؤمنين به في جسدٍ واحدٍ هو جسده الخاص، وذلك بالتَّناول السرِّي، وجعلهم بذلك جسداً واحداً معه ومع بعضهم البعض. فمَنْ يقدر أن يفصل ويفصم هذا الاتحاد النافذ إلى عمق الطَّبيعة، أولئك الذين ارتبطوا بالوحدة في المسيح بهذا الجسد المقدَّس الواحد؟! لأننا إن كنَّا كلُّنا «نشترك في الخُبز الواحد» (١كورنثوس ١٠: ١٧)، فإننا نكون جميعاً جسداً واحداً بالتَّمام، لأنَّ المسيح لا يمكن أن ينقسم!] (شرح إنجيل يوحنَّا ١٧: ٢٠-٢١).

ويقول أيضاً:

[نحن جميعاً بحسب الطَّبيعة منحصرون في شخصيَّاتنا، ولكن من جهة أُخرى نحن جميعاً متحدون. فعلى الرَّغم من كوننا منقسمين إلى شخصيَّات متميزة بعضها عن بعض ... لكننا جميعاً ننصهر في جسد واحد في المسيح، إذ نأكل جسداً واحداً، والرُّوح الواحد يشكِّل وحدتنا. وكما أن المسيح واحد وغير قابل للانقسام، هكذا نحن أيضاً نكون واحداً فيه] (في الثَّالوث ١).

ويقول القدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م):

[«الخُبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح؟» بعد أن قال «شركة جسد» أراد أن يبيِّن ما هو أوثق، لذلك أردف: «فإننا نحن الكثيرين خبزٌ واحدٌ جسدٌ واحدٌ». وكأنه يقول: **لماذا أتكلَّم بعد عن «شركة الجسد» بينما نحن ذلك الجسد بعينه؟** لأنه ما هو الخُبز؟ جسد المسيح. وماذا يصير المتناولون؟ جسد المسيح. فليس هناك أجساد عديدة بعد، بل جسد واحد. فكما أن الخُبز يصير واحدًا من حبَّات كثيرة مجتمعة حتى أنَّ الحبَّات لا تكون ظاهرة مع أنها موجودة، لأنَّ الفرق بينها غير واضح بسبب الاتحاد، هكذا نحن أيضًا نتَّحد بعضُنا مع بعض ومع المسيح. لأنك لا تأكل أنت من جسدٍ وغيرك من جسدٍ آخر، بل الجميع يأكلون من الواحد بعينه. ولذلك أضاف: «لأننا جميعنا نشترك في

٦- تفسير إنجيل يوحنَّا ١:١٥

٧- ضد الأريوسيِّين ٣:٢٢ *N. P. N. F.* 406 والفعل μεταλαμβάνω يعني في الاصطلاح الكنسي: التَّناول من الإفخارستيًّا.

8- *NPNF*, 2nd ser., vol. IV, p. 578.

الخُبز الواحد». فإن كنَّا جميعًا نشترك في الواحد، بل ونصير هذا الواحد عينه، فلماذا لا نُظهِر أيضًا المحبة الواحدة، فنصير بذلك أيضًا واحدًا؟] (عظة ٢٤ على شرح ١كورنثوس ١٠: ١٧).

إذاً تتحقَّق وحدتنا بعضُنا مع بعض، حينما نكون في المسيح. «أنتم فيَّ وأنا فيكم» (يوحنَّا ١٤: ٢٠)، وذلك بسبب الاتحاد الفائق الذي حقَّقه المسيح في عمق كيانه، بين البشريَّة واللاَّهوت.

ويقول القدِّيس كيرلُّس الكبير (٤١٢-٤٤٤م) في تفسيره لقول الرَّب: «من يأكل جسدي ويشرب دمي، يثبت فيَّ وأنا فيه» (يوحنَّا ٦:٥٦):

[إذا مزجنا قطعتَين من الشَّمع، فإنَّ كلاً منهما تبدو مسبوكة تماماً في الأُخرى، وهكذا في رأيي، من يقبل جسد المسيح مُخلِّصنا، ويشرب دمه الكريم، يصير واحداً معه كما يقول الرَّب نفسه. فإنه يصير مسبوكاً وممتزجاً معه بالتَّناول، حتى أنه يكون في المسيح، والمسيح يكون فيه ... وهكذا فإنَّ أقل جزء من الأولوجيَّا (الإفخارستيَّا) ينتشر في جسدنا كلِّه، ويملأه بطاقته الخاصة، وهكذا يصير المسيح فينا ونحن فيه] (تفسير إنجيل يوحنَّا ٦:٥٦).

إن أكلنا هذا الجسد المحيي، هل تكون أجسادنا أيضاً محيية؟

بالطَّبع لا، ويجيب القدِّيس كيرلُّس الكبير عن ذلك فيقول:

[حيث أنَّ جسد المُخلِّص صار محيياً بسبب اتحاده بذلك الذي هو الحياة بطبعه، أي بكلمة الله، لذلك فحينما نأكل هذا الجسد، فنحن ننال فيه الحياة داخلنا، لأننا نتَّحد به، بمثل ما هو متَّحد بالكلمة السَّاكن فيه] (تفسير إنجيل يوحنَّا ٦:٥٣).

[لا يقُل أحدٌ بعدم إيمان: إذا كان الكلمة الذي هو الحياة بطبعه يسكن فينا، ألا يصير بذلك جسد كلٍّ منَّا محيياً؟ لا، فإنَّ هناك فرقاً كبيراً بين الشَّركة النِّسبيَّة التي بها يحل الابن فينا، وبين الاتحاد الذي به جعل الجسد المولود من القدِّيسة العذراء عندما تجسَّد، خاصة له. فالكلمة حينما يحلُّ فينا لا يتأنَّس (من جديد) فإنه لم يتجسَّد إلاَّ مرَّة واحدة] (تفسير إنجيل لوقا ٢٢:١٩).

ويقول أيضاً:

[نحن حينما نشترك في سر الأولوجيَّة (الإفخارستيَّا) ونتناول الجسد المقدَّس الذي للمسيح مخلِّصنا، لا نتناوله بصفته جسداً عادياً – حفظنا الله من مثل هذا التَّجديف – ولا بصفته جسد إنسان تقدَّس واقترن باللُّوغوس باتحاد معنوي ... فإن الرَّب يقول: الحق الحق أقول لكم: إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان، وتشربوا دمه، فليست لكم حياة في أنفسكم ... فلا تحسبن جسد ابن الإنسان هذا، مجرَّد جسد إنسان مثلنا! بل إنه الجسد الخاص لذلك الذي صار ودُعي ابن الإنسان من أجلنا].

[ينبغي أن نكرِّر القَول: الجسد بحد ذاته بطبيعته الخاصة لا ينفع شيئاً من جهة التَّقديس، وإحياء الذين يتناولون منه. ولكن إذا اعتبرنا وآمنا أنَّ – الجسد هو – هيكل الكلمة (اللُّوغوس) فإننا ندرك أنه قادر أن يمنح القداسة والحياة، ليس من ذاته، بل بسبب اللُّوغوس المتَّحد به] (تفسير إنجيل يوحنَّا ١٧:١٣).

[الذي نأخذه في سرّ الأولوجيَّة، ليس مجرَّد طعام مثل بقيَّة الأطعمة، ولا هو جسد قدِّيس، ولكنَّه الجسد المحيي ذاته الذي لله الكلمة] (رسالة ١٧ إلى نسطور).

حدود العقل عند شرح الأسرار الكنسيَّة أو الأسرار عموماً

برغم كلِّ ذلك الشَّرح الذي قدَّمه القدِّيس كيرلُّس الكبير، لكنَّه يعود ويقول:

[بأيَّة كيفيَّة يصير جسد الرَّب محيياً؟ هذا سرٌّ لا يستطيع فكر الإنسان أن يسبر غورَه، ولا أيُّ لسان أن يُعبِّر عنه. ولكنَّه جدير بأن يُعبَد في صمت وإيمان] (تفسير إنجيل يوحنَّا ٦:٦٣).

[اقبلوا كلام المُخلِّص بإيمان، لأنه هو الحق وهو لا يكذب] (تفسير إنجيل لوقا ٢٢:٢٠).

[الخالق نفسه يعطي ذاته مأكلاً لخليقته. الحياة نفسها تعطي ذاتها مأكلاً ومشرباً للإنسان المائت][٩].

هذا هو الجسد المقدَّس المحيي، الذي يملأ الكنيسة كلَّها، في أيِّ قُدَّاس في كلِّ مكان وفي أيِّ زمان. هذا هو الجسد المقدَّس الذي يحمله الكاهن على يديه ويقول: ''أؤمن وأعترف إلى النَّفَس الأخير، أنَّ هذا هو الجسد المحيي الذي أخذه ربُّنا يسوع المسيح من سيِّدتنا ملكتنا كلِّنا، والدة الإله القدِّيسة مريم، وجعله واحداً مع لاهوته بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير، وأسلمه عنَّا ... على خشبة الصَّليب ... بالحقيقة أؤمن أنَّ هذا هو بالحقيقة آمين''.

هذا هو الجسد المحيي الذي نقتنيه في داخلنا، فنصير كلُّنا إلى جسد واحد بسرٍّ لا يمكن التَّعبير عنه، لأنَّ المسيح الواحد الذي فينا، لا يمكن أن ينقسم.

هذا هو الجسد المقدَّس الذي حاز على كلِّ ملء اللاَّهوت جسدياً، أي الذي امتلأ باللاَّهوت في لحظة التَّجسُّد، وبالتَّالي صار رأسُ الخليقة كلِّها متجسِّداً كما كان قبل تجسُّده، وبالتَّالي والأولى صار رأس الكنيسة. أي أنَّ الكنيسة حقَّقت ''ملء المسيح'' لاهوتياً بشهادتها وحياتها، فهي التَّعبير الفعلي والكامل عن ملء المسيح. وهذا يقوله القدِّيس بولس: «وتعرفوا محبَّة المسيح الفائقة المعرفة، لكي تمتلئوا إلى كلِّ ملء الله» (أفسس ٣:٩). أو كما يقول القدِّيس يوحنَّا البشير: «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا، ونعمة فوق نعمة» (يوحنَّا ١:١٦).

هذا الذي له المجد في الكنيسة مع أبيه الصَّالح والرُّوح القُدُس، آمين.

9- *PG*, LXXVII, 1017D.